قراءة في كتاب شرح شواهد قطر الندى
للسيِّد صادق الفحَّام (١٢٠٥هـ)
بتحقيق أ.م.د. ناصر عبد الإله دوش رحمه الله

م.د. أحمد راضي جبر
المديريَّة العامَّة للتربية في بابل

A Reading of the Book «Sharh Shawahid Qatr al-Nada» by Sayyid Sadiq al-Fahham (d. 1205 AH) edited by Dr. Nasser Abdul-Ilah Doush (May GOD have Mercy on Him)

Dr. Ahmed Radhi Jabr
General Directorate of Education in Babylon

مقدِّمة

ليس تحقيقُ نتاج الأعلام القدماء، وإعادة صياغته بطريقة تتلاءم وعصرنا الحاضر غايةً فحسب، وإنَّما هو قراءة جديدة لتلك النصوص، أو قلْ: هو إخراج تلك الموضوعات بنظرةٍ أوسعَ ممَّا كانت عند المؤلِّف الأصل، فقد توافرت عند المحقِّق من الأدوات ما يُمَكِّنه من إحاطة المؤلَّفِ بإحاطة قد تكون أشمل من تجربة المؤلِّف الأوَّل.

ولذلك يمكنني القول: إنَّ المحقِّق مؤلِّفٌ ثانٍ لذلك الكتاب، من غير أن نبخسَ الأوَّل حقَّه؛ لأنَّ الكتابَ المحقَّقَ كتابانِ بين دفَّتين، تحت عنوانٍ واحد، ولاسيما إذا نظرْنا إلى الدراسة التي يقدِّمها المحقِّق بين يدَي الكتاب، وقد ترقى تلك الدراسة إلى منزلة الكتاب المحقَّق، كتحقيقات الشيخ محمَّد محيي الدين عبد الحميد، والأستاذ عبد السلام هارون، وغيرهما من المحقِّقين الأعلام.

وبين يديَّ كتابٌ تفضَّل بتحقيقه الأستاذ المساعد الدكتور ناصر عبد الإله دوش (رحمهُ الله تعالى)، تحت عنوان (شرح شواهد قطر الندى للسيِّد صادق الفحَّام (١٢٠٥هـ)، وهذه الدراسة هي رسالة ماجستير للدكتور، بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الإله عليّ جويعد، في جامعة القادسيَّة/ كليَّة الآداب، عام ٢٠٠٢م.

وقد تفضَّل مركز تراث الحِلَّة في قسم الشؤون والمعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة التابع للعتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، بإخراج هذه الدراسة إلى النور، بطباعته طباعة تسرُّ

الناظريـن، وهذا مـا عهدناه بهذا المركز المبارك، من رعايته لطلبـة العلم والباحثين، من إقامـة ندواتٍ علميَّة تخـصُّ مدينة الحِلَّة الفيحاء على مختلف الأصعدة، ونشـر نتاجات الباحثـين، ومن تلك النتاجات هذا الكتاب لِعَلَمٍ من أعلام مدينتنا العريقة، هو السـيِّد صادق الفحَّام (رحمهُ الله تعالى).

سأقسِّـم هـذه القـراءة على محورَيـن، يشـتمل الأوَّل عـلى وصفٍ لعمـل المحقِّق في دراسـته التـي قدَّمها بين يدي الكتـاب، وأمَّا الآخر فنظرة سريعة عـلى متن الكتاب المحقَّق، وإضافة الأستاذ المحقِّق له.

أسـأل الله تعالى التوفيق والسـداد، وأن يعفو عن زلَّاتنا وهِناتنا، إنَّه سـميعٌ مجيب الدعـاء، وآخـر دعوانـا أن الحمـد لله ربِّ العالمـين، والصلاة عـلى محمَّد وآلـه الطيِّبين الطاهرين.

المحور الأوَّل

العنوان ومقدِّمة التحقيق والدراسة

أوَّلُ ما يقع عليه نظر القارئ، هو عنوان الكتاب، ولذلك ينبغي أنْ يُختار بعناية ودقَّة عاليتَين، وأن يكون مطابقًا لمحتواه. وكتابنا تحت عنوان (شرح شواهد قطر الندى)، وقد التزم مؤلِّفه مطابقته لمضمونه، فقد سلَّط الضوء على جانبٍ من قطر الندى وبلِّ الصدى، لابن هشام الأنصاريّ (٧٦١هـ)، وهو عبارة عن مقدِّمة نحويَّةٍ موجزة، قسَّمه على شكل أبواب، فبدأ بذِكر أقسام الكلام العربيّ (الاسم والفعل والحرف)، ثمَّ ذَكَر المرفوعات، كالمبتدأ وخبره، ونواسخه، والفاعل ونائبه، ثمَّ باب الاشتغال فالتنازع، وعقد بابًا للمنصوبات، وهكذا دواليك، حتَّى ختمه بباب الوقف.

أمَّا عن أسلوب الكتاب، فهو سهلٌ، واضحُ العبارة، ينفع المبتدئ بدراسة النحو العربيّ، فيعمد المؤلِّف إلى ذِكر القاعدة بشكل ميسَّر مفهوم، ومن ثمَّ يمثِّل لتلك القاعدة، بعيدًا عن الاستطراد، وذِكر الخلافات النحويَّة، رعايةً للمنهج الذي انتهجه ابن هشام في هذا المختصر، إذ إنَّ غايته فيه أن يؤلِّف مقدِّمة نحويَّة مختصرة، تفيد مَن شرع بدراسة النحو؛ لينطلق من بعدها إلى دراسة المدوَّنات النحويَّة الأخرى، كالكتاب، والأصول والمغني، وغيرها.

كانت هذه المقدِّمة النحوية محطَّ عناية العلماء والدارسين قديمًا وحديثًا، ومنهم

السيِّد صادق الفحَّام، إذ سلَّط الضوء على جانبٍ من القطر وهو شواهده النحويَّة، إذ شرَعَ بشرحِها بهذا الكتاب.

يبدأ المحقِّق بذِكر الأسباب التي دعته إلى هذه الدراسة، ولعلَّ أهمَّها شعوره بـ«أنَّ لكلِّ جيلٍ من الناس في ذمَّته أو في عنقه أمانة عظيمة بالنسبة إلى الأجيال التي سبقته، وهذه الأمانة هي أن يقوم هذا الجيل بنقل ما ورثه من تراثٍ أدبيٍّ وعلميٍّ عن تلك الأجيال، وذلك عن طريق تحقيق التراث، وإخراجه في صورة يمكن الإفادة منه»[١]، وذَكَر سببًا آخر دفعه إلى دخوله معترك التحقيق، وهو تأثُّره بالأستاذ الدكتور حاكم الزيَّاديّ، الذي درَّسه التحقيق على أصوله، فكان دافعًا له أنْ يحقِّقَ كتابًا يكونُ «إضافةً مُثريةً للمكتبة العربيَّة»[٢].

أمَّا عن دراسة التحقيق، فقد قُسِّمت على فصلَين، بَسَط القول في الأوَّل عن السيِّد صادق الفحَّام، وهو أسلوب جرى عليه المحقِّقون بالتعريف بصاحب المخطوط، فمهمَّة المحقِّق غير مقتصرة على إخراج المخطوط إلى دنيا العلم والمعرفة، وإنَّما بتسليط الضوء على صاحب المخطوط، وإبراز مكانته العلميَّة، فالسيِّد الفحَّام علَمٌ من أعلام الحِلَّة الفيحاء، ترجَم له جملة من علماء الرجال، كما ذَكَر ذلك المحقِّق[٣].

وقد يُفهَم من عبارات المحقق أنَّ السيِّد صادق الفحَّام أوَّل عالمٍ من هذه الأسرة، إذ لم يُعرفْ مَن لُقِّبَ بالفحَّام قبله، فلو كانَ من آبائه مَن سلك طريق التأليف؛ لعُرِفَ بهذا اللقب، وهذا ما ذكره آغا بزرك، إذ يقول: «يغلب على الظنِّ أن يكون هو أوَّل من عُرِف

(١) شرح شواهد قطر الندى: ١٣.
(٢) المصدر نفسه: ١٣.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٩.

بذلك، ولحق بأولاده وأحفاده من بعده»[1].

ولا بدَّ لكلِّ عالمٍ من أساتيذ تتلمذ على أيديهم، فقد ذَكَر المحقِّق العلماء الذين درس على أيديهم الفحَّام، ومَن تتلمذ على يديه أيضًا. ثمَّ بسط القول في مصادر ثقافته، والمنابع التي استقى منها علومه.

ومن المَلَاحِظِ التي تنبَّهت لها، أنَّ الفحَّام، وإن طغت شهرته نحويًّا، ويتجلَّى ذلك من شخصيَّته العلميَّة في هذا الكتاب، فقد كان شاعرًا مُجيدًا، وله ديوان شعرٍ مخطوط في مكتبة الإمام الحكيم[2]، وهي دعوة للمحقِّقين أن يُخرجوا هذا الديوان إلى دنيا المعرفة، حتَّى يفيد منه طلبة العلم، ويكون إضافة معرفيَّة للحِلَّة الفيحاء.

أمَّا الفصل الثاني من دراسة المحقِّق، فقد قصرها على إثبات نسبة الكتاب إلى الفحَّام، واستدلَّ على ذلك بجملة من الأدلَّة[3]، ومن الأمور التي تُحسَبُ للمحقِّق رحمه الله أنَّه كان موضوعيًّا في عمله، فلمْ يَمِلْ للمولِّف على كلِّ حال، وإنَّما قرأ كتابه قراءةً متأنِّيةً فوضعَ عليه جملةً من المؤاخذات، سردها في هذا الفصل[4].

(١) طبقات أعلام الشيعة: ٢/ ٦٤٠.
(٢) شرح شواهد قطر الندى: ٣٢.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤١.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤٤-٤٦.

المحور الثاني

عمل المحقِّق في متن الكتاب

لا يخفى على أحدٍ المهمَّة الشاقَّة التي تقع على عاتق المحقِّق، ولا سيما إذا أخذنا بالحسبان عدد النُّسخ للمخطوط، فغاية المحقِّق «تَقْديمُ هذا المخطوطِ كَمَا وَضَعَهُ صَاحِبُهُ بِنَصِّهِ الحَرْفِيِّ، دُونَ زِيادةٍ أو نُقْصَانٍ»(١)، ويرمي المحقِّق من ذلك إلى «كشف كنوز كتب التراث القيِّمة والصالحة للتربية والتعليم والتثقيف، ووضعها بين أيدي القرَّاء والباحثين؛ مستفيدين منها في بناء الحاضر والمستقبل بناءً متينًا متواصلًا، وترك ما لا فائدة منه، ولا جدوى من تحقيقه»(٢).

فعليه أنْ يقارن ويوازن بين نُسَخ المخطوط، حتَّى يجتبي منها نسخةً أصلًا يعتمدها في عمله، وهي، لعمري، مهمَّة ليست باليسيرة، بدءًا من جمع تلك النسخ والإحاطة بها، ومن ثمَّ قراءتها وإعادة كتابتها بما يتلاءم وعصرنا الحاضر.

وقد كفَّت النجف الأشرف السيِّد المحقِّق مؤونة السَّفر وعنائه، فقد رفدتْه بمكتباتها المباركة بنسخ المخطوط، كمكتبة أمير المؤمنين عليه السلام، ومكتبة الإمام الحكيم (رضوان الله تعالى عليه)، اختار منها نسخة جعلها أصلًا، مبيِّنًا الأسباب التي دعته إلى ذلك، وهي نسخة مكتبة الإمام الحكيم العامَّة، ذات الرقم ١٧٤١، فهي كاملة خالية من النقص

(١) أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق: ١٤٧.
(٢) كيف تحقِّق نصًّا تراثيًّا، رشيد ناظم، بحث منشور في مجلَّة المورد، عدد ١، ٢٠٠٤م: ٩.

والأخطاء النحويَّة واللغويَّة إلَّا ما ندر، وخطُّها واضح جيِّد، وقربها من عهد المؤلِّف.

أمَّا عن جهد المحقِّق، فتجلَّى بـ:

١. تعريف الأعلام المذكورين من شعراء ومفسِّرين ونحويِّين ولغويِّين وغيرهم، ناظرًا إلى عدم إثقال الهامش، حتَّى لا ينشغل القارئ به تاركًا متن الكتاب.

٢. ضبط الآيات الكريمة بحسب الرسم القرآنيّ، وتخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث، وتخريج القراءات القرآنيَّة من كتب القراءات.

٣. إرجاع الشواهد الشعريَّة إلى مظانِّها.

٤. توثيق الآراء النحويَّة واللغويَّة من مدوَّنات أصحابها ما أمكن ذلك.

٥. وختم الدراسة بقائمة من الفهارس الفنيَّة، مستنيرًا بهدْيِ أعلام المحقِّقين.

من الملاحِظ التي أشَّرتها على هذا العمل المبارك، وغايتي علميَّة تقويميَّة لا تقدح بجهد المحقِّق الذي بذله، إلَّا أنَّه جهد بشر، وهم مجبولون على النقص والخطأ، فلم يذكر السيِّد المحقِّق الأسباب التي عدَّته إلى تحقيق هذه المخطوطة من سواها، إذ تخلو المقدِّمة من ذلك، فمن المعلوم في العُرف الأكاديميّ ذكرُ أسباب اختيار موضوع الدراسة في مقدِّمة البحث، وأيضًا لم يُشِرْ إلى شخصيَّة السيِّد الفحَّام النحويَّة، فعلى الرغم من عدِّه موسوعة علميَّة، و«كان للسيِّد صادق الفحَّام الأثر الكبير في انتشار الحركة الفكريَّة في النجف، التي أصبحت في زمنه قبلةً للعلم والعلماء»[1]، إلاَّ أنَّ خاتمة البحث جاءت مقتضبة جدًّا، خاليةً من آراء الفحَّام التي انفرد بها، وأين تجلَّى أثره.

وقد يجابُ عن ذلك بأنَّ غاية التحقيق إخراج المخطوط إلى دنيا المعرفة

(١) شرح شواهد قطر الندى: ٤٠٥.

والساحة العلميَّة، ولكن لا ضرر من تسليط الضوء على نتاجات الفحَّام في خاتمة البحث.

هذه قراءة مقتضبة جدًّا، رَحِم الله السيِّد صادق الفحَّام، الذي يحقُّ لنا نحن الحِلِّيِّينَ أنْ نفخر به، ورَحِم الله الدكتور ناصر دوش على عمله هذا، ووفَّق الله مركز تراث الحِلَّة؛ لأخذه على عاتقه إحياء تراث هذه المدينة العظيمة.

وآخر دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى الله تعالى على محمَّدٍ وآله الطاهرين.